(١١)

البيعة ..

عفا رسول الله ﷺ عن الأسرى من المشركين ، لكنه لم يطلق سراحهم ليعودوا إلى قومهم ، بل أبقاهم مع المسلمين حتى يرجع عثمان ومن معه من المسلمين من مكة. فأرسلت مكة سهيل بن عمرو وحُويْطب بن عبد العُزَّى ومِكْرَز ابن حَفْص إلى النبي ﷺ ، فلما رأى سهيلاً قال لأصحابه: « سهل أمركم ».

قال سهيل لرسول الله: « إن الذي كان من القتال لم نعلم به إلا حين بلغنا وكنا له كارهين ، ولم يكن عن رأي ذوي الرأي فينا ، ولكنه كان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة ، والذين أسرت آخر مرة » (أي الأسرى أجمعين). قال رسول الله ﷺ: « إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابي » (أي عثمان ومن معه). قال سهيل : « أنصفتنا... » وبينما هم في ذلك الحديث أتى آتٍ إلى رسول الله ﷺ وأخبره أن عثمان ومن معه قد قتلوا بمكة . فعندئذٍ دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة .

جلس النبي ﷺ تحت شجرة خضراء ثم قال: « إن الله أمرني بالبيعة » فأقبل الناس يبايعونه حتى تداكّو (تزاحموا زحاماً شديداً) ، ولبس الناس سلاحهم ، وهو يومئذٍ قليل ، لما كان من كره رسول الله ﷺ ، حمل السلاح عند خروجهم من المدينة وهم يريدون العمرة ، كما مر بنا ، وقامت أم عمارة الأنصارية إلى عمود كانت تستظل به فجعلته بيدها ، استعداداً للمعركة ، وشدَّت سكيناً في وسطها !

لما نادى منادي رسول الله ﷺ:« أيها الناس البَيعةَ البَيعةَ ، نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله » خرج الناس مسرعين إلى حيث كان رسول الله ﷺ ، في منازل بني مازن بن النجار ، فكان أسبق الناس إليه أبو سنان الأسدي فقال لرسول الله : ابسط يدك أبايعك! فقال ﷺ ، « علام تبايعني »؟ قال : « على ما في نفسك! » فقال النبي : « وما في نفسي »؟ قال : « أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل ! » فبايعه، وبايعه الناس على بيعة أبي سنان ! [1] وكان سلمة بن الأكوع فيمن بايع أول الناس ، حتى إذا كان في وسط الناس (أي وسط توافدهم على البيعة) ناداه رسول الله ﷺ : « بايع يا سَلَمة » قال : قلت : قد بايعتك يا رسول الله في أولِّ الناس ،

---

(١) كنز العمال رقم ١٥٣٥ ؛ والصالحي، السابق، جـ٥ ص ٨٣؛ والروض الأنف للسهيلي جـ٢ ص٢٣٥.

قال : «وأيضاً» (يعني بايع الآن أيضاً) ، قال سَلَمةُ : ورآني رسول الله عَزِلاً (أي لا سلاح معه) فأعطاني حَجَفَةً ـ أو دَرَقةً ـ (وهي ترس صغير من جلد) ، فلما كان في آخر الناس قال: «ألا تبايعني يا سلمة»؟ قال : يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس ، وفي وسط الناس ، قال «وأيضاً» فبايعته الثالثة. وقال رسول الله له «أين جَحَفَتُكَ التي أعطيتك؟» قال سلمة : لقيني عمي عامر عزلاً فأعطيته إياها ، فضحك رسول الله ﷺ ، وقال «إنك كالذي قال الأول: اللهم ابغني حبيباً هو أحب إليَّ من نفسي» ! ! [1]

وبايع الناس يومئذٍ رسول الله على ألا يفِرُّوا ، أو على الموت ، والمعنى واحد ، وهي البيعة التي رضي الله عن أصحابها : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح:١٨) . وهي البيعة التي نسبها ربنا تبارك اسمه إلى نفسه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح:١٠) . ولذلك سميت «بيعة الرضوان».

---

(١) سبق تخريجه من حديث سلمة بن الأكوع . ومراد أن سلمة فضَّل عمه على نفسه فضرب له رسول الله ﷺ هذا المثل الطريف.

وبايع عبد الله بن عمر مرتين ، فقد كان أبوه أرسله ليحضر له فرساً له كان عند رجل من الأنصار ، فرأى عبد الله ابن عمر الناس محدقين برسول الله يبايعونه فبايع ، ثم أتى بالفرس إلى أبيه وأخبره بأمر البيعة ، فخرج ليبايع ، وعبد الله معه ، فبايع مع أبيه ، فكان له يوم بيعة الرضوان ، بيعتان .

وضرب رسول الله ﷺ إحدى يديه بالأخرى وهو يقول : « اللهم إن عثمان في حاجتك ، وحاجة رسولك »[1] ، فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم ، هكذا قال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما .

وكان الذين بايعوا يومئذٍ نحو خمس عشرة مائة من المهاجرين والأنصار. فقال فيهم رسول الله ﷺ ، « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة »[2]. وقال لهم يومئذٍ: « أنتم خير أهل الأرض »[3].

---

(١) كنز العمال من مسند سلمة بن الأكوع الحديث رقم ٣٦١٩٤؛ وهو في المعجم الكبير للطبراني برقم ٦٢٦٣ من طبعة وزارة الأوقاف العراقية، بتحقيق حمدي السلفي، جـ٧ ص ٢٣، وذكره الصالحي (ص٨٣)، من رواية البيهقي عن أنس؛ ومن رواية ابن إسحاق عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) حديث جابر بن عبد الله، وهو في الترمذي برقم ٣٨٦٠، وفي أحمد برقم ١٤٨٣٧، وفي سنن أبي داود برقم ٤٦٥٣، وهو في مسلم بلفظ مختلف برقم ٢٤٩٦.

(٣) متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله البخاري برقم ٤١٥٤، ومسلم برقم ١٨٥٦.

وبايع يومئذ الرجال والنساء جميعًا ، فقد ذكر الرواة في تراجم من خرجن مع رسول الله ﷺ شهودهن بيعة الرضوان[1].

وتخلف يوم بيعة الرضوان ، ممّن كانوا مع رسول الله ﷺ ، رجل واحد . وفي الرواية عن تخلفه ما يدل على خوفه من إلزام نفسه بما ألزم المبايعون به أنفسهم من البيعة على عدم الفرار ، أو على الموت ؛ وسأذكر قصته عما قليل .

فلما رأى سهيل بن عمرو ومن معه من المشركين سرعة الناس إلى البيعة ، وتشميرهم إلى الحرب ، اشتد رعبهم وفزعهم ، وأسرعوا إلى قريش يخبرونهم بما كان ، وحينئذٍ لم تَرَ قريشٌ أفضل من أن تقبل دعوة النبي ﷺ إلى عقد معاهدة إلى مدة محدودة يأمن الفريقان فيها. وذلك هو ما كان من أمر صلح الحديبية .

* * *

(١) راجع مثلا ترجمة أم عمارة الأنصارية، نَسيبة بنت كعب في أُسد الغابة لابن الأثير الترجمة رقم ٧٥٤٣؛ وفي الإصابة لابن حجر الترجمة رقم ١٤٢٦.